العقد الفريد

لابن عبد ربه

كانت الحملة الإسلامية فى شبه جزيرة إيبريا ، المدخل الجنوبى الغربى لأوروبا ، لمروع عمل حربى عرفه تاريخ العصور الوسطى ، فما هى إلا سنوات سبع (٧١١ - ٧١٧ م) حتى تم فتح شبه الجزيرة ، التى تعتبر من أجمل وأوسع الأقاليم فى أوربا - وقدّر للحضارة العربية ، بعد نصر يبدو كأنه أسطورة ، أن تستقر هناك زمناً ، وأن يصبح لها ، بعد وقت ، طابعها الخاص المميز ، على الرغم من أصولها المشرقية ، وأن تصبح قرطبة ، وقد جعل منها السمح بن مالك الخَولانى عاصمة ، أعظم مركز للثقافة فى أوربا ، وأن تنال شهرة عالمية تبعث الرهبة والإعجاب . لقد كان لها واحد وعشرون ضاحية ، وفيها سبعون داراً للكتب ، مرصوفة الطرق ، مضاءة الشوارع ، زاخرة بالحمامات العامة ، فى الوقت الذى كانت فيه جامعة أكسفورد - مثلا - ترى الاستحمام عادة وثنية .

كان المجتمع الأندلسى بعامة ، والقرطبى بخاصة ، حضرياً مترفاً ، بلغ فيه ذوق الناس العام قدراً عالياً من الرقة وتذوق الفنون الجميلة ، يطرب للموسيقى والشعر ، ويهتز للإنشاد الجميل ، والغناء الحلو ، تأسره الطبيعة بجمالها وسهولها وجبالها ، وشمسها وقمرها ، وتميزت حضارته بأنها تعشق المياه الجارية ، والبساتين الخضرة والبحيرات المتصلة ، والأنوار المنتشرة ، فى عصر الحصون والأسوار والقصور المظلمة .

وكانت وسائل الثقافة متاحة للناس جميعاً وعلى حين لم يكن فى بقية أوربا من يعرف القراءة والكتابة ، باستثناء رجال الكهنوت ، كانت معرفتها أمرًا عاديًّا وشائعًا فى إسبانيا الإسلامية وقلّ فيها من كان أميًّا ، وكان الحكم الأول يطمح فى أن يأتى على الجهالة فى دولته ، فأنشأ فى العاصمة وحدها ، ولحسابه الخاص ، سبعاً وعشرين مدرسة كبيرة ، يستطيع فيها أبناء الفقراء أن يتعلموا مجاناً ، وهى ميزة لم

تكن وقفاً على العاصمة ، وحدها ، وإنما كانت تشاركها فيها كبريات المدن الأندلسية كإشبيلية والمرية ومالقة وجيّان وغيرها . وكانت المكتبة الملكية فى قرطبة لاتضارع فى شرق أو غرب ، حتى ن الإمبراطور البيزنطى وجد أن خير هدية يمكن أن يهديها لعبد الرحمن الناصر هى كتاب يونانى ، أحسن تجليده وزخرفته وتجميله وكان غرام الناس بالكتب لاحد له ، وبلغ من اعتناء أهلها بالكتب ، أنهم أخذوا يتجملون بها ، كما يتجمل الناس اليوم باقتناء السجاجيد والخزف والطرف الأثرية .

وإلى جانب ذلك ، كانت بلد العلم والفقه والأدب ، وإليها الرحلة فى رواية الشعر ، ومنها كان علماء الأندلس . يبدأون رحلتهم إلى المشرق فى أعداد وفيرة ، يطلبون العلم فى جامعاته ، من فقه وتفسير وحديث ، وفلسفة وفلك وطب ، ولغة وأدب وتاريخ ، كذلك كانت قرطبة نفسها مقصد كبار علماء المشرق ، ممن يرومون الشهرة ، أو يبغون الثروة ، أو يريدون أن يضيفوا إلى علمهم جديد . ولم تكن الثقافة العربية فى إشراقها وازدهارها وقفاً على المسلمين من سكان الأندلس ، إنما شملت بقية العناصر الأخرى من مسيحيين ويهود ، وتحفظ كتب التاريخ الإسبانية شكوى مريرة أرسلها « ألفارو » أسقف قرطبة ، يشكو فيها من أن تابعيه من المسيحيين أهملوا كلية دراسة اللغة اللاتينية ، وأقبلوا على اللغة العربية عن إعجاب وحب ، يحفظون أشعارها وقصصها ، ويبدعون بها شعراً جميلاً ، لايقل روعة عما يبدعه العرب أنفسهم ، فلا غرو أن وصفتها الراهبة الألمانية روسفيتا (ت حوالى ١٠٠٢ م) فى قصيدة لها بأنها : جوهرة العالم المتألقة ، مدينة حديثة رائعة ، زهوة بمنعتها ، نافقة بمباهجها ، مختالة بثقافتها ، فاضت بينابيع المعرفة السبعة بها ، وطبق اسمها الآفاق ، أبد الدهر ، بما أحرزت من نصر متواصل .

يذكر المؤرخون فى التعريف بنسب ابن عبد ربه أنه : « أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبى » ، ولد فى قرطبة عام ٨٦٠ م ، وهى على ماأشرنا إليه قبل ، وبها نشأ ، ومن ثقافتها نهل ، درس الشائع فى عصره من أدب وتاريخ ولغة ، وفقه وتفسير وحديث ، على جلة من علماء عصره ، فكان من أساتذته : محمد بن وضاح ، وبقى بن مخلد ، ومحمد ابن الحارث الخشنى ، وعنه يقول ابن خلكان : « كان من العلماء المكثرين من

المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس » .

انتمى إلى بلاط محمد بن عبد الرحمن شاباً فتياً ، ولازمه طوال مدة إمارته (٨٥٢ - ٨٨٦ م) ، وترك هذا فيه أبلغ الأثر . كان محمد بن عبد الرحمن واقعاً تحت تأثير أعظم شخصين فى قرطبة فى ذلك الوقت : يحيى بن يحيى الفقيه ، وزرياب المغنى ، فجاء ابن عبد ربه موزع القلب بين هذين الأمرين ، كان فقيهاً دارساً ، وبهذا اللقب عرف ، تكريماً له على طريقة عصره ، وكان صاحب لهو يطرب ويشرب ويعشق ، وإذا كان مؤرخو عصره قد مروا بالجانب الثانى من حياته سراعاً ، ورعاً منهم أو إجلالا له ، فقد اعترف بأنه يحب سماع الموسيقى والأغانى ، على طريقة أهل المدينة ، وأنه يشرب النبيذ جرياً على مذهب أهل العراق .

دينُه ، فى السماع ، دينٌ مَدينيٌّ وفى شربنا الشراب عراقى

وقد دافع عن الغناء فى « عقده » : « إن كانت الألحان مكروهة فالقرآن والآذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها » . وقد حار المتأخرون من علماء المشرق والمغرب فى أمره ، إزاء المتناقض من خبره فبينما يمدحه صاحب « بغية الملتمس » بأنه : « كانت له ديانة وصيانة » ويقول عنه صاحب إرشاد الأريب : « وكانت : لأبى عمر بالعلم جلالة » نجد فيما وصلنا من شعره ، ومن الملامح العامة لعقده ، أنه عب من المباهج الحسية لعصره ، وشارك فيما كان يجرى حوله من طرب وشرب ولهو . ولا تناقض بين الروايتين فيما أرى ، فإحداهما تصفه شاباً مقبلاً على الحياة ، آخذاً من مباهجها بقدر واسع ، والأخرى تتحدث عنه شيخاً ، مدبراً عن الدنيا زاهداً فيها ، يحاول أن يتزود لآخرته بأوفى نصيب ، ومصداق ذلك أنه عمد فى أخريات أيامه إلى أشعاره فى الغزل والشراب فمحصها ، ونقضها بمثيلها فى المواعظ والزهد ، وسماها الممحصّات ، وجعلها على أعاريض تلك وقوافيها ، فقصيدته الغزلية :

هلّا ابتكرت لبين أنتُ مبتكر ... هيهات يأبى عليك الله والقدرُ

مازلتُ أبكى حذار البيْن مُلتهفاً ... حتى رثَى لى فيك الريحُ والمطرُ

يابرده من حيًا مُزنٌ على كبد ... نيرانُها بغليل الشوقِ تستعرُ

آليت ألا أرى شمسًا ولا قمرًا حتى أراك فأنت الشمس والقمر

فقد نقضها بقوله :

يا عاجزًا ليس يعفو حين يقتدر ولا يقضىّ له من عيشه وطرُ
عاين بقلبك إنّ العين غافلة عن الحقيقة واعلم أنها سقرُ
سوداء تزفر عن غيظ إذا سعرت للظالمين فلا تبقى ولاتذر
إنّ الذين اشتروا دنيا بآخرة وشقوةً بنعيمٍ ، ساء ماتجروا
يا من تلهىّ وشيبُ الرأس يندبه ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر
لو لم يكن لك غيرُ الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقولُ له ما قلت مبتدئاً : « هلا ادكرتَ لبينٍ أنت مبتكرُ »

وقد لازم ابن عبد ربه الأمراء : محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦) ، والمنذر بن محمد (٨٨٦ - ٨٨٨) وعبد الله بن محمد (٨٨٨ - ٩١٢) وعبد الرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١) ، وكان معهم جميعاً شاعر البلاط ونديمه ، وقال فى غزوات الناصر وانتصاراته شعرًا كثيرًا ، وخصه بأرجوزة ذكر فيها كل سنة من مغازيه على حدة ، لكن ليس فى شعره ولا فى عقده مايدل على أنه شخصياً كان يشارك فى الحروب أو يسهم فيها بنصيب .

لا يعرف لابن عبد ربه نثر يمكن أنْ يستدل به على مكانته فى الكتابة ، غير مقدماته لأبواب عقده ، وهى تمتاز بالوضوح والرقة فى الأسلوب ، والخلو من الغريب ، والبعد عن التكلف والتعقيد ، والازدواج فى العبارة ، مع وضوح فى التعبير وجزالة فى اللفظ .

أما شعره فكان موضع إعجاب القدامى وتقديرهم ، ذكره الفتح بن خاقان فى « مطمح الأنفس » وقال : « إنه حجة الأدب وإن له شعراً انتهى منتهاه وتجاوز سماك الإحسان وسهاه » وقال عنه ابن سعيد المغربى فى « المرقصات والمطربات » : « إمام أهل أدب المائة الرابعة ، وفرسان شعرائها فى المغرب كله » وذكر ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » : « أنّ له ديوان شعر جيد » ، وروى ياقوت فى « إرشاد الأريب » : أن أبا الوليد بن عسال لقى المتنبى فى مسجد عمرو بن العاص ، وأن المتنبى قال له : أنشدنى لمليح الأندلس ، يعنى ابن عبد ربه . فأنشده :

يـا لؤلؤًا يسبى العقـول أنيقـا ورشـا بتقـطيـع القلوب رفيقـا
ما إن رُميتُ ولا سمعْت بمثله درًّا يعـود من الحيـاء عقيقـا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهـه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تخطع خصـره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقـا

فاستعاد المتنبى ثم صفق بيديه وقال : « يا ابن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبوًا » .

واختلف المحدَثون بإزائه ، الدكتور أحمد ضيف ، فى « بلاغة العرب فى الأندلس » يرى فى شعر ابن عبد ربه : أنه كان « من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل ، لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء » . والمستشرق الإسبانى **أنخل جنثالث بالنثيا** يرى فى كتابه « تاريخ الأدب الأندلسى » : « أنه كان شاعر بلاط فقط ، ولم يكن ذا شاعرية ممتازة » وأحمد أمين ، فى « ظهر الإسلام » ، يرى أن « ابن عبد ربه غير واضح الشخصية ، يسير فى ركاب المشارقة ، ويجتهد ما استطاع أن يأخذ من معانيهم ، ويزيد عليها ، ويختار فى كى نوع من الشعر إمامًا من المشارقة ، فطورًا إمامه صريع الغوانى ، وطورًا أبو لعتاهية ، وغيرهم . لم يتحرر تحررًا كافيًا ولم يصغ إلى قلبه قط » .

لزم ابن عبد ربه الأندلس طوال حياته ، فلم تعرف له أية رحلة إلى بلد آخر . ومعارفه الواسعة عن الثقافة المشرقية جاءته من أساتذته ، ممن رحلوا إلى المشرق ، ومن قراءاته ، ومن صلاته بعلماء المشرق الوافدين على الأندلس . وهناك من يظن أن له رحلة ، اعتمادًا على الوصف الدقيق الذى أورده للحرمين فى آخر العقد ، والواقع أنّ هذا الوصف مما أضيف إلى العقد ، بعد وفاة المؤلف ، إلى جانب أخبار أخرى .

بالمرض الذى مات به الجاحظ من قبل ، وأبو الفرج الأصفهانى من بعد ، أصيب ابن عبد ربه ، فمات بالفالج عام ٩٤٠ م ، وهو ابن واحد وثمانين عامًا .

* * *

شهر ابن عبد ربه بكتابه « العقد الفريد » وليس له بين أيدينا كتاب آخر ، وإنْ كان حاجى خليفة فى فهرسه « كشف الظنون » ذكر أنّ له مؤلفًا ثانيًا اسمه : « اللباب فى معرفة العلم والآداب » ولم ترد إليه إشارة فى مصدر آخر ، ولم يعثر له

على أثر ، ومن هنا يظن أن « اللباب فى معرفة الآداب » ليس إلا جزءًا من العقد نفسه ، أورده المؤلف تحت عنوان « الياقوتة فى العلم والأدب » وأما الثالث فديوان شعر قيل إنه كان يشغل نيفًا وعشرين مجلدًا لم يصلنا منه شىء ، وضاع فيما ضاع من تراث الأندلس النادر ، وإنْ أورد هو فى عقده بعضًا من شعره . وروى له الثعالبى فى « يتيمة الدهر » جزءًا كبيرًا منه ، يصلحان لدراسته والحكم عليه شاعرًا .

بقى لنا من كتب الأديب الأندلسى كتاب « العقد » وحده ، وليس ذلك بالقليل فهو يمثل الآن فى حياتنا الثقافية والأدبية المرتبة التى تلى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وقد درج الناس على تسميته بالعقد الفريد دون شك يراودهم فى أنّ زيادة لحقت اسمه ، أو تحويرًا أصابه ، إلى أن كتب المستشرق الألمانى بروكلمان مادة « ابن عبد ربه » فى دائرة المعارف الإسلامية فأوضح أن كلمة « الفريد » أضافها المتأخرون ، دون أن يستطرد إلى ذكر ما يساند رأيه ، وإنْ يكن من الواضح الآن أن العالم الألمانى قرر ذلك اعتمادًا على أنّ جميع المصادر الأولية ، لا يُرَى فيها العقد منعوتًا بالفريد ، فلا الفتح بن خاقان فى « مطمح الأنفس » ولا ياقوت فى « معجم الأدباء » ، ولا صاعد الأندلسى فى « طبقات الأمم » ، ولا ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ولا المقّرى فى « نفح الطيب » ، ولا ابن أبى أصيبعة فى « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، ولا ابن خلدون فى « تاريخه » ولا حاجى خليفة فى « كشف الظنون » ، أشار إلى نعت الفريد ، وكان الوحيد الذى أشار إليها هو الأبشيهى فى كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » ، ومع ذلك فإن من الصعب الجزم بأن هذه الكلمة أضيفت فيما بعد ، وأصعب منه تحديد الزمن الذى أضيفت فيه ، وتعدّد من أهملها ، وتفرّد من أوردها ، لا يقوم وحده دليلاً على نفى أو إثبات ، وبخاصة أن كلمة « الفريد » توجد فى كل المخطوطات التى بين أيدينا الآن .

قسم صاحب العقد مؤلفه إلى خمسة وعشرين كتابًا ، فى خمسة وعشرين فنًّا ، ثم تصوّره عقدًا مؤلفًا من خمس وعشرين جوهرة كريمة ، اثنتا عشرة فى جانب ، واثنتا عشرة أخرى فى جانب ، وجعل للعقد واسطة ، لكنه لم يسم إلاّ الاثنتى عشرة الأولى ، فلؤلؤة ، وفريدة ، وزبرجدة ، وجمانة ، ومرجانة ، وياقوتة ،

وجوهرة ، وزمردة ، ودرة ، ويتيمة ، وعسجدة ، ومجنبة ، أمّا الاثنتا عشرة التى فى الجانب الآخر فهى هذه الأسماء مكررة ، فاللؤلؤة الثانية ، والفريدة الثانية ... إلخ وهذه الكتب وموضوعاتها هى :

١ - اللؤلؤة فى السلطان .
٢ - الفريدة فى الحروب ومدار أمرها .
٣ - الزبرجدة فى الأجواد والاصفاد .
٤ - الجمانة فى الوفود .
٥ - المرجانة فى مخاطبة الملوك .
٦ - الياقوتة فى العلم والأدب .
٧ - الجوهرة فى الأمثال .
٨ - الزمردة فى المواعظ والزهد .
٩ - الدرة فى التعازى والمراثى .
١٠ - اليتيمة فى النسب وفضائل العرب .
١١ - العسجدة فى كلام الأعراب .
٢٥ - اللؤلؤة الثانية فى النتف والهدايا والفكاهات والملح .
٢٤ - الفريدة الثانية فى الطعام والشراب .
٢٣ - الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان .
٢٢ - الجمانة الثانية فى المتنبئين والممرودين والبخلاء والطفيليين .
٢١ - المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن .
٢٠ - الياقوت الثانية فى علم الألحان واختلاف الناس فيه .
١٩ - الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى .
١٨ - الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه .
١٧ - الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم .
١٦ - اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .
١٥ - العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم .

١٢- المجنبة في الأجوبة . ١٤- المجنبة الثانية فى لتوقيعات والفصول وأخبار الكتبة .

١٣- الواسطة فى الخطب

من استيعاب مادة العقد يبدو أن مؤلفه كان يهدف إلى وضع دائرة معارف صغيرة ، تفى بمطالب الأديب ، على النحو الذى كان يطلب منه فى ذلك العصر ، من الإلمام بطرف من كل علم ، فهو يعرض لكل ضروب المعرفة فى عصره ، على النحو الذى ازدهرت عليه فى المشرق ، على يد الجاحظ والمبرد وابن قتيبة ، وآخرين ، وكان مؤلف ابن قتيبة « **عيون الأخبار** » **من أوضح المصادر الشرقية أثرًا فى العقد الفريد** ، وكان رائجًا فى الغرب الإسلامى ، يقبل الناس هناك على دراسته واستيعابه ، وتميز مؤلفه من بين معاصريه ، ومن سبقهم ، بحسن تبويب كتبه ، وقد قسم « عيون الأخبار » إلى عشرة كتب : السلطان ، والحرب ، والسؤدد ، والطبائع والأخلاق ، والعلم ، والزهد ، والإخوان « عيون الأخبار » من أوضح المصادر الشرقية أثرًا فى العقد الفريد ، وكان رائجًا فى الغرب الإسلامى ، يقبل الناس هناك على دراسته واستيعابه ، وتميز مؤلفه من بين معاصريه ، وم، والحوائج ، والطعام ، والنساء . وكان يسوق الباب ثم يتبعه بما هو قريب إليه أو مناسب له ، وهو نفس المنهج الذى سلكه ابن عبد ربه فى العقد ، بل أخذ ابن عبد ربه أكثر مادة « عيون الأخبار » ونقلها إلى كتابه ، وهو يعترف أحيانًا بأخذه منه ، ويسكت أحيانًا أخرى . كما أفاد مما حكاه أبو عبيدة فى « النقائض » و « أيام العرب » ، ومن الجاحظ فى « البيان والتبيين » فنقل عنه فصولاً فى العتاب واستنجاز الوعد ، والاعتذار وكتابة الرسائل ، ومن المبرد فى « الكامل » فأخذ عنه الكثير من أخبار الخوارج ، وتعرض له وللجاحظ ، فذم المبرد ودافع عن الأخير ، ومن ابن المقفع فى أدبيه الصغير والكبير وكليلة ودمنة ، ومن الطبرى فى « تاريخ الأمم والملوك » ومن ابن سلام الجمحى فى « طبقات فحول الشعراء » وآخرين كثيرين .

وأورد كثيرًا من الآيات القرآنية والأحاديث ، وأخذ عن التوراة والإنجيل ، وتمثل بكثير من الحكم الفارسية والهندية ، واقتبس من أرسطو ، وهى معارف توجد متناثرة بكثرة فى المصادر المشرقية التى نقل عنها .

لكن ابن عبد ربه لم يقف عند المصادر المشرقية وحدها ، ولم يقف بكتابه عند المأثور المشرقى ، وإنما عرض لتاريخ أمراء الأندلس حتى زمنه ، وخص عبد الرحمن الناصر بأرجوزة أورد فيها مآثره وانتصاراته حتى زمنه ، وإن يكن حظ الأندلس ، إذا قيس بما خصّ الشرق الإسلامى ، متواضع قليل ، وهى ملاحظة أبداها علماء المشرق أنفسهم ، رووا أن الصاحب بن عباد حين قرأ « العقد » قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أنّ هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه » . وهى قولة لا تعيب صاحب العقد ، ولا تقلل من قيمة الكتاب ، فقد عرف الأندلس مذهبين فى التأليف ، أحدهما يعنى بالأندلس ورجاله فحسب . يدرسهم ويسجل أخبارهم ، وآثارهم ، كما فعل الفتح بن خاقان فى « مطمح الأنفس » ، وابن بسام فى « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وأخرى عنيت بأدب المشرق فى المكان الأول ، تدرسه وترحل إلى مصادره وتعود فتدرّسه وتذيعه بين مواطنيها ، وأحيانًا كان الأمراء ، منافسة لبغداد ، وزهوًا بما وصلوا إليه ، أو حبًا للثقافة تمسها ، يفسحون من بلاطهم وأموالهم مكانًا لعلماء المشرق الوافدين ، فينهضون فى العاصمة ، أو غيرها ، بالتدوين والتدريس ، كما فعل أبو على القالى ، ففى الأندلس ألف « الأمالى » كتابه الشهير ، وهما طريقتان تكمل إحداهما الأخرى ، فالسبيل لأية نهضة ثقافية ، فى أية أمة ، أنْ تفتح عقلها وقلبها أمام الثقافة الوافدة ، تفيد منها وتتمثلها ، دون أن تفقد معها شخصيتها ، وأن تبدع لنفسها ، فلا تعيش عالة على غيرها .

أورد لنا ابن عبد ربه منهجه فى تأليف كتابه واضحاً فى مقدمته فقال : إنه يختار ، ويحسن الاختيار ، وينتقى جواهره من خير مافى الأدب ، ومن جوامع الكلم ، وإن له : « تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش فى صدر كل كتاب ، وماسواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه . وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله » .

وإنه تخل نظائر الكلام ، وأشكال المعانى وجواهر الحكم ، وضروب الأدب ، ونوادر الأمثال ، ثم قرن كل جنس منها إلى جنسه ، فجعله باباً على حدته ،

ليستدل الطالب للخير على موضعه من الكتاب ، ونظيره فى كل باب .

وإنه تخير من جملة الأخبار ، وفنون الآثار ، أشرفها جوهراً ، وأظهرها رونقاً ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظاً ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة .

وإنه حذف الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلباً للاستخفاف والإيجاز ، هرباً من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر ، لا ينفعها الأسناد باتصاله ، ولايضرها ماحذف منها .

وإنه نظر فى بعض الكتب الموضوعة فوجدها غير متصرفة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعل العقد كافياً شافياً جامعاً لأكثر المعانى حتى تجرى على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحلى كل كتاب منها بشواهد من الشعر ، تجانس الأخبار فى معانيها ، وتوافقها فى مذاهبها ، وقرن بها غرائب من شعره ، ليعلم الناظر فى كتابه أنّ للمغرب على قاصيته ، وليبلده على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والمنثور .

يعد العقد واحداً من المصادر الهامة لتأريخ الحياة العربية بجوانبها المختلفة ، سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية . فهو يضم بين صفحاته مادة وافرة من الأخبار والقصص والوثائق ، التى تعين على تصور حركة تطور المجتمع العربى . فكتاب السلطان – مثلاً – يعطى صورة واضحة عن سياسة عمر ، رقابته لعماله ، والرسائل المتبادلة بينه وبينهم فيما يتصل بالثراء الفاحش الذى أصابوه فجأة ، بعد أن تولوّا له العمالة ، فى هذا القطر أو ذاك ، من الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة . وفى كتاب الحرب حديث طويل عن فرسان العرب فى جاهليتها وإسلامها ، وعن حروب الأزارقة وتاريخهم وأبطالهم وآرائهم ، وتفوقهم ، وأقوال كل فرقة ، وانفرد بذكر أخبار لم تحفظها لنا بقية المصادر الأخرى كمشاورة المهدى لأهل بيته ووزرائه فيما يتصل بحرب خراسان ، وأخبار زياد والحجاج والطالبيين تحتوى حقائق يعز العثور عليها فى مكان آخر .

إلى جانب ذلك ، سَلِمَتْ أخبار العقد ، نسبيًّا ، من التشويه والتحريف والبتر ، ومن هنا يمكن الاعتماد عليه فى المقابلة بين النصوص المختلفة عند تحقيق ونشر المصادر التى أخذ منها ، أو التى نقلت عن رواة استند إليهم ، وهو مافعلته دار الكتب المصرية ، عند تحقيقها كتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ونشره ،

فقد ألحقت بمتنه زيادات نقلتها عن العقد ، وصححت كثيرًا من الأخطاء التى وجدتها فى مخطوطات « عيون الأخبار » عند مقابلة نصوصها بما أورده العقد عنها .

ويتميز العقد عن الكتب القديمة بأنه مقسم موضوعياً ، فكل مايتصل بالسلطان – مثلاً من حقوق وجلساء ، ووزراء وأعوان ، وولاة وقضاة ، وحجاب واستبداد ، تجده فى مكان واحد . ومايتصل بالوفود العربية فى الجاهلية والإسلام ، التى قدمت على كسرى فى فارس ، أو على ملوك العرب فى الحيرة واليمن ، أو على النبى ، وصفات الوافدين وأعدادهم ، وماقالوا ، وماقيل لهم ، كل ذلك فى كتاب آخر ، مما يسهل عملية الإفادة منه على نحو كبير ، ويعتبر بحثه فى العروض من أكمل البحوث التى وصلت إلينا ، فقد ضمنه كل الشواهد التى وضعها الخليل بن أحمد لبحور الشعر ، ثم أضاف إليها مقطعات غزلية من نظمه ليسهل حفظها .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن العقد كغيره ، وربما على نحو أقل ، **خضع لألوان من الزيادة والتحريف** ، من قبل الرواة أو النساّخ ، ربما كان أصحابها يرون الزيادة فى العلم خيراً ، أو صنعوا ذلك مدفوعين بأغراض أخرى ، ومن الموضوعات التى وردت فيه ، وتثير الشك على نحو قوى ، الوصف الدقيق الذى أورده للحرمين ، والذى لا يتأتى إلا لمن رآهما رأى العين ، وابن عبد ربه لم يبرح الأندلس : على أرجح الآراء ، وكذلك حديثه فى تراجم الخلفاء العباسيين عن أربعة منهم توفوا بعده .

وهو **لا يمحص الأخبار** ، ولا يقف منها موقف الفاحص المدقق ، وإنما يعرضها كيفما تأتّت له ، فيذكر فى مكان من العقد أنّ معاوية توفى وولده يزيد عنده ، ثم يشير فى مكان آخر إلى أنّ يزيد كان بعيداً عن دمشق حين وافت المنية معاوية ، ثم يعرض لأشياء هى إلى الخرافات والأساطير أقرب ، دون أن يعلق عليها ، أو « يثيره شذوذها ، كحديثه عن رجل عاش مائة وتسعين عاماً ثم اسود شعره ، ونبتت أضراسه . وعاد شاباً » .

نقل عن « العقد » كثيرون ممن جاءوا بعده ، وأفادوا من مادته الوفيرة ، مثل : الأبسيهى فى كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » واعترف بذلك فى مقدمة كتابه ، وابن خلدون فى تاريخه ، والقلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ، والبغدادى فى خزانة الأدب وغيرهم .

وعلى الرغم من المكانة التى يحتلها « العقد » فى حياتنا الثقافية المعاصرة ، كان حظه من الترجمة إلى اللغات الأخرى قليلاً ، فلا نعرف له ترجمة إلى أية لغة أجنبية ، شرقية أو غربية ، وإن كان من المعروف أنّ مستشرقاً فرنسياً نقل منه إلى الفرنسية كثيرًا من النصوص التى تتصل بعرب الجاهلية ، ونشرها فى باريس أعوام ١٨٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

كذلك اعتمد على الكتاب الأول منه ، والخاص بالسلطان ، المستشرق الإسبانى **خوليان ريبيرا** فى بحثه عن « أصول القضاء فى أرغون » والذى استهدف فيه بيان تأثير النظم السياسية والقضائية والإدارية لمسلمى الأندلس ، فى مثيلاتها بممالك الشمال الإسبانية المسيحية .

* * *

اختصر العقد ، قديماً ، اثنان :

الأول : أبو إسحق إبراهيم بن عبد الرحمن **الوادى آشى القيسى** ، المتوفى عام ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م ، وهو أندلسى من وادى آش ، تبع مقاطعة غرناطة .

والثانى : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصارى الخزرجى الشهير **بابن منظور** ، صاحب معجم لسان العرب ، والمتوفى عام ٧١١ هـ ، ومن قبله اختصر الأغانى أيضاً . واختصر حديثاً مرتين :

الأولى عندما عمدت لجنة من أساتذة دار العلوم إلى اختصاره ، استجابة لرغبة وزارة المعارف إذ ذاك ، فاختارت بعض كتبه ، وانتقت من هذه بعض أخبارها ، وأسمته « مختار العقد » ونشر عام ١٩١٣ ، والثانية تَمّتْ من أعوام أربعة ، عندما نشرت بعض مختاراته فى سلسلة كانت تشرف على إصدارها وزارة الثقافة والإرشاد .

وقد ذكر **بروكلمان** فى كتابه تاريخ الأدب العربى عدداً من المخطوطات لكتاب العقد الفريد توجد فى أنحاء متفرقة من العالم : فى برلين وفيينا والإسكوريال بإسبانيا ، والمتحف البريطانى ، وباريس ، وبطرسبرج ، وميلانو ، وفى تركيا فى مكتبات : أيا صوفيا ، ونورى عثمانية ، وراغب باشا ، وكوبريلى ؛ وبعض هذه الأمكنة يوجد فيها أكثر من مخطوطة ، كذلك توجد له مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الرباط مما لم يشر إليه المستشرق الألمانى .

وقد طبع العقد الفريد عدة مرات فى مصر : طبع فى بولاق لأول مرة عام ١٢٦٣ هـ ، وفى المطبعة العثمانية عام ١٣٠٢ هـ ، وفى المطبعة الشرقية عام ١٣٠٥ هـ ، وطبع مرة ثانية فى نفس المطبعة عام ١٣١٦ هـ ، وفى المطبعة الأزهرية عام ١٣٢١ هـ ، وفى المطبعة الجمالية عام ١٣٣١ هـ ، وفى مطبعة مصطفى محمد عام ١٣٥٣ هـ .

ثم طبعته المكتبة التجارية لمصطفى محمد طبعة أخرى بتحقيق محمد سعيد العريان عام ١٩٤٣ ، فى أجزاء متعددة ، ولكن أجود الطبعات وأدقها ، وأحسنها تنظيمًا تلك التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠ م ، بتحقيق الأساتذة : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبيارى ، وإن كان اكتشاف عدد من مخطوطات العقد فى مكتبات المغرب . لم تكن معروفة من قبل ، يجعل من الخير ، إعادة طبع العقد ، مع الإفادة مما قد تضمه هذه المخطوطات من جديد .

هذا وقد قام الأستاذ **محمد شفيع** ، أستاذ اللغة العربية فى جامعة بنجاب بالهند بإصدار كتاب فى جزأين عن العقد الفريد ، أحدهما فهرس تحليلى للنسخ المطبوعة فى مصر والثانى تصحيحات وتعليقات ومقارنات بينها ، ولا يقل فهرسه دقة وتنظيماً عما وضعه المستشرق **جويدى** لكتاب الأغانى من قبل ، وقد نشرهما فى كلكتا علم ١٩٣٥ - ١٩٣٧ .

* * *

○ منتخبات من كتاب « العقد الفريد » :

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص ، وكان عامله على مصر :

من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، أما بعد : فإنه بلغنى أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك أن لا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال ولا تكتمه .

فكتب إليه :

من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين . سلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه مافشا لى ، وأنه يعرفنى قبل ذلك ولامال لى ، وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى ببلد السعر به رخيص ، وإنى أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالجه أهله ، وليس فى رزق أمير المؤمنين سعة . وبالله لو رأيت خيانتك حلالا ماخنتك ، فاقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحساباً هى خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ، ولعمرى إن عندك من لا يذم معيشته ولا تذم له ، وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير منى ، فإن كان ذلك لم نفتح قفلك ، ولم نشركك فى عملك .

فكتب إليه عمر :

أما بعد ، فإنى والله ماأنا ممن أساطيرك التى تسطر ، ونسقك الكلام فى غير مرجع ، ومايغنى عنك أن تزكى نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك ، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ثم لم يعودكم عذر ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم ، أما إنكم تجمعون العار ، وتوردون النار والسلام .

بين جهم بن صفوان ويونانى

قال : لقى جهم رجلاً من اليونانيين فقال له : هل لك أن تكلمنى وأكلمك عن معبودك هذا . أرأيته قط ؟ قال : لا ، قال : فلمسته ؟ قال : لا ، قال : فذقته ؟ قال : لا ، قال : فمن أين عرفته وأنت لم تدركه بحس من حواسك الخمس . وإنما عقلك معبر عنها ، فلا يدرك إلا ما أوصلت إليه من جميع المعلومات . قال : فتلجلج جهم ساعة ثم استدرك فعكس المسألة عليه فقال له : ماتقر أن لك روحاً ؟ قال : نعم ، فهل رأيته أو ذقته أو سمعته أو شممته أو لمسته ؟ قال : لا ، قال : فكيف علمت أن لك روحاً ؟ فأقر له اليونانى .

من أخبار الخوارج

لما خرجت الخوارج على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا من أصحابه ، وكان من أمر الحكمين ما كان ، واختداع عمرو لأبى موسى الأشعرى ، قالوا : لاحكم إلا الله ، فلما سمع على رضى الله عنه نداءهم ، قال : كلمة حق يراد بها باطل ، وإنما مذهبهم أن لا يكون أمير ، ولابد من أمير براً كان أوفاجراً . وقالوا لعلى : شككت فى أمرك ، وحكمت عدوك فى نفسك ، وخرجوا إلى حروراء ، وخرج إليهم على رضى الله عنه ، وخطبهم متوكئاً على قوسه ، وقال : هذا مقام من أفلح فيه أفلح يوم القيامة ، أنشدكم الله ، هل علمتم أن أحداً كان أكره للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى عليها حتى قبلتها ، قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيماً فبنا إلى الله منه ، فتب إلى الله منه ، واستغفره نعد إليك ، فقال على : إنى أستغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه وهم فى ستة آلاف ، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ، وتاب منه ، ورآه ضلالا ، فأتى الأشعث بن قيس عليا رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا والإقامة عليها كفراً وتبت ، فخطب على الناس فقال : من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضل منها . فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت ، فقيل لعلى إنهم خارجون عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون .

من عمر بن الخطاب
إلى أبي موسى الأشعرى
[عامله على اليمن]

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى :

أما بعد ،

فإنّ للناس نَضْرة عن سلطانهم ، فاحذر أنْ تدركنى وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء مُتَّبعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود ، واجلس للمظالم ، ولو ساعة من النهار ، وأخف الفسّاق واجعلهم يدًا يدً ، ورجلًا رجلًا .

وإذا كانت بين القبائل نائرة فنادوا : يا لفلان ، فإنما تلك نجوى من الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله عز وجل ، وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام ، واستدم بالنعمة بالشكر ، والطاعة بالتألّف ، والمقدرة بالعفو ، والنصرة بالتواضع ، والمحبة للناس .

وبلغنى أن ضبّة تنادى : يا لضبَّة . وإنّى والله ما أعلم أن ضبّة ساق الله بها خيرا قط ، ولا صرف بها شرًّا ، فإذا جاءك كتابى هذا ، فانْهكهم عقوبةً حتى يَفْرقوا إن لم يفقهوا ، وألصق بغيلان ابن خرشة من بينهم .

وعُدْ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم بنفسك ، وافتح لهم بابك ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حِملًا .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ، ولأهل بيتك ، هيئة فى لباسك ، ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها ، فإيّاك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همها فى السِّمن والسِّمن حتفها . واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، فأشقى الناس مَن يشقى به الناس ، والسلام .